فلسفة الهداية والإرشاد (١)

إشكاليات التعامل مع السلوك الجمعي

د. زهير الأعرجي

يعيش المسلمون في إقامة شعائرهم العبادية سلوكاً متضافراً أشبه ما يكون بالسلوك الجمعي . ففي الأعياد الدينية ، كالفطر والأضحى والغدير ومواليد النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام ، يتجمّع المؤمنون في المساجد والحسينيات لأداء الفرائض الخاصّة بتلك الأعياد أو لاستماع المحاضرات والابتهالات والأناشيد الدينية . وفي مناسبات الأحزان ، كعاشوراء ووفيات النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام ، يتجمّع المؤمنون للبكاء والتعبير عن مشاعر الحزن العميق .

وفي صلاة الجمعة يهتم المؤمنون بخطبتي الصلاة وينصتون لها لاكتشاف المعاني والبيانات التي يطرحها الإمام الخطيب . وفي المناسبات العامّة ، كالزواج وعموم الأفراح والوفيات ، يقوم الناس بالتعبير عن مشاعرهم بشكل طبيعي يغلب عليه الجانب الفطري التكويني .

ففي تلك الحالات يتساءل المرء : ما هو دور المبلّغ في التأثير على الناس عندما يتجمعون في مكان واحد ؟ وكيف يقوم المبلّغ باستثمار السلوك الجمعي من أجل إيصال رسالته إلى الآخرين ؟ وما هو الأصل الشرعي في تحديد ضوابط السلوك الجمعي ؟ وهل إن السلوك الجمعي يؤدّي دائماً إلى نشر الإسلام وتقوية إيمان الأفراد به ؟ ومن أجل الإجابة عن تلك التساؤلات نعرض مقدمة حول شرعية السلوك الجمعي

وشروطه وأنواعه ، ثم نقوم بدراسة مختصرة حول دور المبلّغ في الهداية والإرشاد ، من منظار السلوك الجمعي الديني .

أ ـ شرعية التأثير في السلوك الجمعي

لاشك أن الدعوة إلى الإسلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبة وجوباً كفائياً ؛ بمعنى أنها تسقط عن الآخرين إذا قام بها من كان فيه غنىً وكفاية . وبتعبير ثالث أن التكليف متعلق بالجميع على معنى الاجتزاء به من أي فرد منهم . ويقع العقاب على الجميع مع ترك الفعل أصلاً .

ويؤيده قوله تعالى : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** ﴾[١] . والأمة واحد فصاعداً ، كما في قوله تعالى: ﴿ **إن إبراهيم كان أمّةً قانتاً لله** ﴾[٢] . والتبليغ للإسلام هو دعوة للخير بكل ما تحمله الكلمة من إطلاق . وانحصار التبليغ بالمبلِّغين يعني تقييد الدعوة إلى الإسلام بقيود العلم ، والقدرة على التأثير ، والأمان من المفْسدة .

فمن شروط التبليغ :

أولاً: العلم بالمبادئ الأساسية للدين الحنيف . وقد اتّفق الفقهاء ـ رضوان الله عليهم ـ أن من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو العلم كي يأمن الغلط ؛ لأن الجهل قد يوقع في المحذور وهو إعطاء بيانات خاطئة عن العقيدة أو الحكم الشرعي ، بل قد يصل الموضوع في بعض حالات الجهل إلى الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف . وهو ما لا يمكن القبول به عقلاً ولا شرعاً . والعلم هنا من مسائل التأثير ، لأنه يؤدّي إلى رجوع الجاهل إلى العالم في أغلب الأحوال ، على الصعيدين الديني والاجتماعي .

ثانياً: أن يكون قادراً على التأثير ، فلو غلب ظنّه أنه لا يؤثر ، عليه أن يفسح المجال لفرد آخر له قدرة أعظم من قدرته . وقد نوقش في هذا الشرط باعتبار أن الأوامر مطلقة ومقتضاها الوجوب على الإطلاق حتى في صورة العلم بعدم التأثير . ولكن خبر مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله عليه السلام أُخذ حجّة في هذا الحقل وهو : «إنه لما سُئل عليه السلام عما جاء عن النبي صلى الله عليه وآله : (**إن أفضل الجهاد كلمة عدل عند إمام جائر**) قال : **هذا على أن يأمره بعد**

---

(١) سورة آل عمران ١٠٠.

(٢) سورة النحل: ١٢١.

معرفته ، وهو مع ذلك يقبل منه ، وإلّا فلا»[٣] .

فكان هذا الخبر والإجماع من مبررات وجوب شرط القدرة على التأثير . ولسان الدليل الشرعي ينسجم مع مقتضى الارتكاز العقلائي . فإن القدرة على التبليغ الفعّال تعني القدرة على التأثير والتغيير . وإلّا فإنّ عدم التغيير تُفهَم فلسفياً على أن عدم الشرط هو شرط العدم .

ثالثاً: الأمان من المفْسدة . وبتعبير أوضح : إن توجّه المرشد الإسلامي نحو الجمهور بالخطابة والتبليغ والإرشاد ينبغي أن لا يؤسس لمفْسدة اجتماعية أو دينية من أي نوع . وأقصُد بالمفْسدة : الضرر الأخلاقي والاجتماعي في الدين والعرض والمال والنفس .

ب ـ شروط السلوك الجمعي الديني

ولو افترضنا أنّ السلوك الجمعي ظاهرة استثنائية في السلوك الإنساني ، فإنه ليس كذلك في السلوك الديني . فالدين السماوي يحثّ المكلفين على التجمّع وأداء الشعائر التعبّدية بصورتها الجماعية . ويحثّهم أيضاً على الحضور المكثّف في ساحات العلم والتحصيل والمنافحات المعرفية والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ويحثّهم أيضاً على إعلان المسرّات والأفراح ، وإظهار الحزن والآلام بالصورة الجماعية التي كان من أركانها إطعام الجماعة أو مساعدة الفقراء والمساكين . وعلى وجه التحديد فإن القسم الأعظم من السلوك الديني الخارجي سلوك جمعي فيما يخصّ العبادات والمعاملات بشكلها العام ، وسلوك فردي فيما يخصّ النية والدافع نحو الأداء وبعض العبادات المختصّة بالجانب الفردي .

ولما كان السلوك الديني سلوكاً جمعياً بهذا المقدار ، فلابدّ أن ندرس شروطه الموضوعية التي تفسّر تكوينه وبناءه ومن تلك الشروط :

أوّلاً: تركيبة الإلزام الديني ؛ فلا يحصل السلوك الجمعي في العبادات والمناسبات الدينية ما لم تكن هناك إلزامات دينية بالحضور والنشاط الجماعي . فإذا كانت صلاة الجمعة والجماعة واجبة بالمعنى الأعم ، فلابدّ أن يكون التجمّع في المسجد وانتظار الصلاة مقدّمة من مقدّمات تلك الفريضة الواجبة . حتى أن الأوامر الإلهية مشتملة على

---

(٣) «الوسائل» باب ٢ من أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ح ١ ، ج ١١ ، ص ٤٠٠ .

صيغة الجمع ، كما في قوله تعالى : ﴿ **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين**﴾(٤) ، وقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نُودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذرُوا البيع ...** ﴾(٥) .

وكذلك الأمر في بقية العبادات كالصوم والجهاد ونحوها . وهذا يعني أن قسماً من العبادات يحمل تلك الصيغة الشرطية التي تؤدّي إلى التجمّع والاستقرار باطمئنان كتفاً إلى كتف مع بقية المؤمنين .

ثانياً : الضغوط الذاتية التي تنشأ من التهاب الوجدان العاطفي للمؤمن حول مأساة الطف بالخصوص ومأساة أئمة أهل البيت عليهم السلام بالعموم . فتلك الحيثيات الذاتية تدفع الأفراد المحبّين لأهل البيت عليهم السلام بالتجمّع لإحياء ذكراهم ونشر مناقبهم عليهم السلام . وكثرة الأخبار والروايات الواردة عن المعصومين عليهم السلام باستحباب البكاء والزيارة ، تدلّ على أن جوهر التجّمع لإحياء مآتم آل بيت النبوة عليهم السلام ديني المنشأ والأثر حيث يتمّ فيه الإطعام والإرشاد وإتمام الحجّة .

ثالثاً : الإحساس المشترك بوحدة الهوية ووحدة الانتماء المذهبي أو العقائدي . وهذا الشرط من الشروط المهمّة في تشكيل السلوك الجمعي ، إلا أنه ليس شرطاً مطلقاً بل هو مقيّدٌ بطبيعة الشروط الموضوعية للتجمّع . فقد يُحتمل حصول السلوك الجمعي بأكثرية لها انتماء موحّد وأقلية مذهبية متناثرة بين تلك الأكثرية . فالدعوة إلى صلاة الجماعة قد يصحبها إحساس مشترك بوحدة الهوية المذهبية ، ولكن الدعوة إلى محاضرة إسلامية عامّة يصحبها إحساس مشترك بوحدة الدين لا وحدة المذهب .

رابعاً : الهدفية في التجمع . فالسلوك الجمعي الديني لا يحصل بمجرد تجمّع مجموعة من الأفراد في ساحة ما ، أو لا يحصل بمجرد تجّمع الناس في حافلة للركاب مثلاً . فالهدفية هنا منتفية بانتفاء الموضوع .

ولكن السلوك الجمعي الديني يحصل عندما يُدعى المكلّفون لأداء صلاة العيد جماعة . فيكون الهدف من التجمع هنا هو أداء صلاة العيد . والسلوك الجمعي يحصل عندما يبكي الباكي على مصيبة الإمام الحسين عليه السلام في إحدى الحسينيات فيبدأ الآخرون

---

(٤) سورة البقرة : ٤٣ .

(٥) سورة الجمعة : ٩ .

بالبكاء وهم يستمعون إلى الخطيب يفصّل في مفردات المأساة . فيكون الهدف من التجمع الحسيني ذكر أهل البيت عليهم السلام والتألّم لمصائبهم ومحاولة الاقتداء بهم عليهم السلام .

خامساً: القيادة العملية . فالسلوك الجمعي يحتاج إلى قائد يرشده ويُوجّهه توجيهاً شرعياً صالحاً . وقد يتمثّل القائد بإمام الجماعة في صلاة الجمعة والجماعة والعيدين ، وقد يتمثّل بالخطيب في مناسبات إحياء ذكرى آل بيت الرسول صلى الله عليه وآله ، وقد يتمثّل بالمبلِّغ الذي يقود العمل الإرشادي في منطقته . وفي كل تلك الحالات ، يكون الأصل قدرة القيادة الدينية المحلية على تحريك الأفراد تحريكاً منسجماً مع أهداف الدين ورسالته في الحياة الاجتماعية .

وتلك الشروط في السلوك الجمعي الديني تختلف عن شروط نظرية «نيل سملسر» في السلوك الجمعي[٦] . فقد آمنت تلك النظرية بمقوّمات السلوك الجمعي التي يشاطرها لونٌ من الشغب والعنف والكراهية ؛ بينما تكمن شروط السلوك الجمعي الإسلامي في كون الدين دين محبّة وسلام ، فيكون المقتضى سلاماً ومحبّة ، وتعاضداً وانسجاماً ؛ لأن المقتضي رسالة إلزام بالتعاون والتكاتف والتآخي ؛ ذلك لأن الدين السماوي يوفّر الأجواء المناسبة لكل مقتضيات سلامة السلوك الجمعي الإنساني وتكاملها .

ج ـ أنواع السلوك الجمعي

وقد اعتاد علماء الاجتماع المعاصرون [٧] . على تصنيف السلوك الجمعي إلى ثمانية أصناف هي : **الجمهور** ، **والجماهير** ، **والغوغائية** ، **والذعر الجماعي** ، **والإشاعات** ، **والهستريا الجماعية** ، **والموضة** ، **والرأي العام** . وقد بنى هؤلاء المفكرون نظرياتهم الاجتماعية على أساس استقراء الحالات الإنسانية التي تدعو الأفراد للتجمع والسلوك سلوكاً متشابهاً ، أو موحّداً إلى حدّ ما . ونستطيع نحن استقراء سبع حالات مشابهة لتلك التي اعتاد تصنيفها علماء الاجتماع . ونستنتج من ذلك أن الحالات المختلفة للسلوك الجمعي هي حالات إنسانية تكوينية يميل الأفراد إلى ممارستها عندما تتوافر

---

(٦) راجع كتاب «الأبعاد الاجتماعية لفريضة الحج» للمؤلف . قم المشرفة : ١٤١٥ هـ ؛ ونيل سملسر ، «نظرية السلوك الجمعي» ، نيويورك ، المطبعة الحرّة ، ١٩٦٢م .

(٧) هادلي كانتريل ، «سيكولوجية الحركات الاجتماعية» ، نيويورك ، وايلي ، ١٩٦٣م ؛ وغوستاف لوبون ، «دراسة في العقل الجمعي» ، نيويورك ، فيكنك ، ١٩٦٠م ؛ وجون دولارد ونيل ميلر ، «الشخصية والعلاج النفسي» ، نيويورك ، ماكرو هيل ، ١٩٥٠م .

الشروط اللازمة لذلك . ولنبدأ بعرض موجز لتلك الأنواع :

١ ـ **الجمهور** : وتعني اصطلاحاً اجتماع مجموعة صغيرة أو كبيرة من الأفراد بشكل متقارب فتُنشئُ تفاعلاً اجتماعياً له آثار فكرية على الفرد والجماعة . وأفضل أمثلتها جمهور المتعّبدين لصلاة الجمعة والجماعة والعيدين ، والجمهور الحسيني الذي يتفاعل مع آثار واقعة الطف ، والجمهور المذهبي الذي يشارك في المناسبات المذهبية ، والجمهور الثقافي الذي يشارك في الندوات والمحاضرات الإسلامية . والجمهور المحتشد في مناسبات كتلك يعتبر كياناً غير مستقرّ اجتماعياً ، ولا يمتلك التركيبة الفكرية التي تجعله يتفاعل لفترة طويلة . ولكنّ التأثيرات عليه كبيرة جداً ، فالاندفاع نحو الحضور والتجمّع يعني انفتاح ذهن الإنسان الحاضر في ذلك التجّمع نحو تقّبل الأفكار والبيانات الموجّهة له . وبتعبير آخر إن استجابة الإنسان المندفع ليكون عضواً في ذلك الجمهور أكبر في باب التأثير ، من الإنسان الذي لا يمتلك اندفاعاً نحو الحضور والمشاركة الفكرية أو الذهنية فيه . وهنا يأتي دور المبلِّغ ـ خطيباً كان أو محاضراً أو إمام جمعة وجماعة ـ ليدخل تلك الأبواب المفتوحة في التأثير من دون موانع ذهنية أو نفسية .

٢ ـ **الجماهير** : وتعني اصطلاحاً مجموعة الأفراد التي تهمّها نفس المشكلة الاجتماعية التي شغلت بال الجمهور ، إلا أن أفرادها قد لا يجتمع بعضهم بالقرب من بعض ؛ بينما يكون الجمهور في مكان واحد كالمسجد أو الحسينية أو قاعة المحاضرات. ولكن الأفراد المنضوين تحت راية الجماهير لا يعرف بعضهم بعضاً على الصعيد الشخصي ، إلّا أنهم يستجيبون لنفس المشكلة الاجتماعية بنفس التفكير والأسلوب . ومن الطبيعي فإن أهمّ أشكال عمل الجماهير هو تعبيرها عن رأي عام يوحد توجّهاتها . وأفضل عمل للتأثير على الجماهير هو نشر الكتاب أو المجلّة أو الصحيفة اليومية أو الكاسيت (الشريط الصوتي) . فالجماهير تهمّها نفس المشكلة الدينية التي تطرحها تلك الوسائل الفعالة في النشر والتبليغ والإرشاد والهداية . ولا شك أن عمق المشكلة الدينية عند شعوب العالم، واختلاف مستويات الأفراد في الفهم والتحليل ، تجعل من جميع الوسائل الفكرية ـ المبسّطة منها كالصحف والإذاعات والمعمّقة كالكتب والمتون الفقهية والفلسفية ـ أدوات للتأثير الفكري والسلوكي على الأفراد .

٣ ـ **الغوغائية** : وهي في الاصطلاح : الجمهور المنفعل عاطفياً والذي يؤدّي انفعاله إلى أعمال عنف وتخريب . ومع أن أهداف هذا اللون من الجمهور محدودة وتركيبته الاجتماعية والفكرية غير مستقّرة أصلاً إلا أن سلوكه الغوغائي يعتبر من أخطر التحدّيات ضدّ النظام الاجتماعي والسياسي . وهذا السلوك لا يهمّنا في التبليغ والإرشاد، لأن الإسلام لا يدعو الناس إلى تخريب ممتلكات الآخرين ونهبها . بل إنّ من شروط الجهاد الابتدائي ، المتضمّن قتالاً وأسراً وسبياً ، هو أن لا يقطع شجرة ولا يحرق بيتاً ولا يخرّب ولا يتعرّض للمدنيين ممّن هم خارج ساحة القتال. وإذا كان ذلك ممنوعاً في الجهاد ، فإن منعه في التبليغ والإرشاد أولى . **والسؤال الذي يُطرح هنا هو :** لو واجه المبلّغ أو المرشد أعمالاً من ذلك القبيل ، فما هو تكليفه الشرعي ؟ والجواب على ذلك يتمّ من جنبتين .

الأولى: الجنبة الفكرية ، وهو أن يتّخذ جانب الحكم الشرعي والارتكاز العقلائي بعدم تخريب ممتلكات الناس وملاحظة حرمة انتهاك أموال الأفراد وأنفسهم وأعراضهم.

والثانية : الجنبة العملية ، وهو الرجوع إلى ولي أمره الفقيه المرجع الجامع للشرائط ليستلهم من إرشاداته ما يكون مناراً له في تحقيق العمل الشرعي .

٤ ـ **الذعر والهستريا الجماعية** : واصطلاحاً يعبّر الذعر الجماعي عن شكل من أشكال السلوك الجمعي الذي يواجهُ الناسُ فيه خطراً محققاً ، فيتصرّفون من وحي ذلك الخطر المحدق بهم تصرّفاً مشوباً بالخوف والاضطراب والفورية . ويحصل هذا الذعر الجماعي عندما يضطرب العرفُ الاجتماعي المألوف بسبب طروء حالة استثنائية كحرب مفاجئة ، أو إعصار مدمّر ، أو زلزال مرعب . ويدخل في هذا اللون من السلوك الجمعي : الهستريا الجماعية ، وهي لون من ألوان السلوك الفطري الذي يصاحبه قلق وحذر جماعي . وقد لاحظنا ذلك عندما استخدمت الأسلحة الكيميائية ضدّ الأبرياء العزّل في الحروب . ومعالجة ذلك السلوك الجمعي يدخل ضمن إطار مسؤوليات الدولة، ولذلك فإن بحثه خارج عن إطار بحثنا هذا

٥ ـ **الإشاعات** : وهي معلومات تنقلها جهات مجهولة بشكل منظّم . وقد تكون صادقة وقد تكون كاذبة ، وربما كانت خليطاً من الصدق والكذب . ولكن من الصعب معرفة منشئها ، على عكس المعلومات التي تنشرها الأجهزة الإعلامية الرسمية حيث

معلومية مصدرها وجهتها محرزة . وتكمن خطورة الإشاعة في أنها تسير سيراً متوازياً مع أخبار أجهزة الإعلام الرسمية أو شبه الرسمية . بل يعتبر انتشار الإشاعة شكلاً من أشكال نشاط الجماعة ـ بقصدٍ أو دون قصد ـ لأن تأثير الإشاعة ذاته قد يسبب نوعاً من السلوك الجمعي .

فإذا كان الوضع الاجتماعي والسياسي متوتّراً، فإن أي إشاعة قوية تحرّض الجمهور على الخروج إلى المسرح الاجتماعي تحدّياً للنظام السياسي ؛ خصوصاً إذا كان ذلك النظام يحرم الأفراد من حقوقهم المشروعة في الحصول على معلومات صادقة . وتنتشر الإشاعات أيضاً إذا كان الأفراد لا يثقون بحكومتهم ولا يعترفون بالمعلومات التي تقدّمها لهم . وبكلمة ، فإن الإشاعة هي البديل الإعلامي عن الخبر الصادق ، في وضع اجتماعي محروم من استلام الأخبار الصادقة .

ولاشك أن تأثير الإشاعة على إنشاء السلوك الجمعي يعتمد على قوة فكرتها ، وعدد الأفراد الذين ينقلونها ، والزيادات التي تُضاف عليها ، وموقف الأفراد العقائدي منها . ويختلف توجّه الأفراد نحو الإشاعة أيضاً ، بدرجات اختلافهم في تأييد النظام المذهبي او الاجتماعي أو الاعتقاد بنظريته وصحّة تطبيقاتها العملية .

وما يهمّنا هنا من موضوع الإشاعات هو كيفية معالجة الإشاعات المخرّبة ضدّ عقيدتنا ومذهبنا ودولتنا الشرعية من قبل المبلّغ أو المرشد ؟ فبعض الإشاعات تحمل على التشّيع وتتهمه بالخروج عن الإسلام ، وبعض الإشاعات تتهم الدولة الشرعية بمختلف التهم الباطلة ، وبعض الإشاعات قد تسري إلى المبلِّغ أو المرشد نفسه فتتهمه باتهامات باطلة . فكيف يتمّ معالجة الآثار الخريبية للإشاعة الكاذبة ؟

لا شك أنه ليس هناك وسيلة شرعية أقوى من تسليح الناس بالعلم، والتبين تجاه إي قضية من القضايا التي يواجهونها ، كما نستفيده من محكم قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأٍ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالةٍ فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾[٨] . وتسليح الأمّة بالمعلومات الصادقة ليس أمراً ميسوراً لكل وارد ، بل يحتاج إلى أساليب علمية في مواجهة الحرب النفسية التي تتخذ من الإشاعة الكاذبة أصلب وقودها . فنحن نُتهم من قبل بعض المذاهب بالكذب مثلاً لأننا نستخدم الرخصة

---

(٨) سورة الحجرات : ٦ .

الشرعية في التقية . والطريق الأمثل لمعالجة ذلك الاتهام الباطل هو شرح مفصّل للجنبتين الفكرية والعملية لفكرة التقية . فالجنبة الفكرية هي شرعية التقية في الإسلام ، والجنبة العملية تُفصح عن معاناة أتباع أهل البيت عليهم السلام في التأريخ . ولولا استثمار تلك الرخصة الشرعية لاندرست آثار النبوة وانمحت تعاليم السماء .

وبكلمة ، فإن محاربة الإشاعة الكاذبة لا يتمّ إلّا بالعمل العلمي المخلص الجادّ من أجل مقابلتها بالحقائق والوثائق الصحيحة . وهو جهاد شرعي في سبيل نشر الإسلام بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، لأن الحرب مع الأعداء اليوم ليست حرباً عسكرية بل ولا حتى حرباً فكرية بل هي حرب نفسية بالدرجة الأولى .

٦ ـ الموضة : وفي الاصطلاح هي : نظام خاصّ يُصمَّم من قِبَل متخصّصين لتغيير مظهر الفرد الخارجي ، وما يتبعه من تأثير اجتماعي على سلوكه الفردي أيضاً . وتُعتبر الموضة شكلاً من أشكال السلوك الجمعي ، لأنها تفرض على الأفراد سلوكاً مشتركاً . ومن الطبيعي فإن الموضة لا تنشأ من فراغ أو عفوية ، بل إن لها منشأً سياسياً واقتصادياً مرتبطاً بالفكرة الرأسمالية . والعرف الاجتماعي يقبل الموضة باعتبارها قضية مؤقتة تُستبدل بعد فترة بتصميم آخر . وكون الموضة من أركان التغيير الاجتماعي في الدول الصناعية قد يُعزى إلى سببين :

الأوّل : أن المؤسسات الصناعية الكُبرى لها مصلحة اقتصادية عظيمة في تغيير المظهر الخارجي للأفراد فيما يخصّ الملابس والكماليات والحافلات ، من أجل جني أكبر قدر ممكن من الأرباح .

الثاني : أن فكرة الموضة منسجمة مع تطلعات النظام الاجتماعي الطبقي . لأن اقتناء الأشياء الثمينة المتغيرة دوماً يعبّر عن وسيلة من وسائل تشخيص الهوية الطبقية للفرد المقتني .

وتهمّنا مشكلة الموضة هنا ـ في مجال التبليغ ـ من حيث إنها تستهدف التأثير الاجتماعي لثقافة الفرد الدينية . فالإذعان لتغيير المظهر الخارجي ـ من تصميمٍ للأزياء أو طريقةٍ معيّنةٍ لقص الشعر ـ يعني باباً مفتوحاً لتغييرٍ في العقيدة والالتزام والسلوك الشخصي .

فثقافة أصحاب الشَعر الطويل من أوروبا في الستينيات مثلاً أثّرت على شباب

العالم الإسلامي وجعلتهم أكثر انحلالاً في الأخلاق ، وأكثر ابتعاداً عن دينهم ومعتقداتهم . والمرتمون في أحضان الغرب من المثقفين المسلمين اليوم يقفون من بعض عقائدهم موقف الحياء والخجل والاعتذار . كلّ ذلك يحصل بسبب المنهج العلمي لإفساد الشباب . فإن كان الشاب مستعداً للتنازل عن ثقافته وتقاليده في المظهر الخارجي ، فانه لا يصمد لاحقاً أمام إغراءات تغيير جوهر شخصيته الفكرية والعقائدية.

ولو أجملنا مورد الموضة ، لقلنا بأن المبلّغ أو المرشد إذا نجح في وصد باب تقّبل الموضة غير الشرعية عند المكلّف ، فإن أبواب البناء الثقافي والعقائدي والمذهبي ستكون مفتوحة كي يعمل عمله الهادف في بناء شخصية ذلك الإنسان المستهدَف من قبل مختلف التيارات .

٧ ـ الرأي العامّ : اصطلاحاً هو : النظرة المشتركة التي تحمل اتفاقاً ضمنياً للقضايا والمشاكل التي تهمّ الأفراد والمجتمع . وتلك النظرة المشتركة أقرب إلى النظرة العقلائية في المجتمع من نظرة الجمهور المتجّمع في بقعة مكانية واحدة ، لأنّ الأفراد الذين يشتركون في الرأي العام يفكّرون ويعبّرون عن مشاعرهم كأفراد مستقلّين لا كمجموعة واحدة كما هو الحال في الجمهور . لكن قرارهم يخضع لنفس الضغوط الموجّهة نحو الجمهور وسلوكه الجمعيّ .

ولاشك أن للرأي العام تأثيراً فعّالاً على الاستقرار السياسي والاجتماعي للدولة الحديثة . ومن هذا المنطلق حاولت الحكومات المختلفة تنمية وسائل الإعلام الرسمية وشبه الرسمية لتستطيع التأثير على الأفراد تماماً كما تستطيع الإيحاءات والإشارات التأثير على سلوك الجمهور المحتشد في مسجد من مساجد المدينة أو شوارعها . وبتعبير أدق إن المعلومات أو الآراء المعروضة في وسائل الإعلام إنما تعرض مع تصميم وقصد مسبق لإقناع الجمهور بتبنّي تلك الآراء ، بغضّ النظر عن ارتكازها الواقعي ، ودون الاكتراث لحرّية الأفراد واستقلاليتهم في انتخاب ما يشاءون من أفكار ومواقف خاصّة بهم .

والتأثير على الرأي العام من قبل المبلّغ أو المرشد الديني مهمّ جداً ، لكنّه يحتاج إلى جهود جبارة تتجاوز الجهود الفردية المشتتة . بل تحتاج إلى جهود منظّمة مع إمكانيات هائلة . فالكتابة في الصحف والمجلات ، وتقديم برامج في الإذاعة والتلفزيون ، وإلقاء خطب الجُمَع والجماعات كلها تساعد الأمّة على تصميم رأي عام منسجم مع أهداف الشريعة .

دور المبلّغ في الهداية والإرشاد

إن دور المبلّغ أو المرشد الديني في الهداية والإرشاد ـ من منظار السلوك الجمعي ـ ليس دوراً ثانوياً ، بل هو دورٌ رئيسي خطير في نشر الإسلام وهداية الناس من خلال عنوان أكبر هو : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

ومن الطبيعي ، فإن افتراض كون الفرد يسلك سلوكاً مغايراً لسلوكه الفردي عند اجتماعه بالآخرين ، له آثار إيجابية على تفعيل دور المبلّغ في عمله الشاقّ مع الناس . ومن أجل ذلك نقول : إنّ حثّ الإسلام على تضييق الفوارق النفسية بين السلوكين الفردي والجماعي ، يحتاج إلى وقفة تأمّل . فالدين يحثّ المكلفين على المشاركة في الأعمال الجماعية كصلاة الجماعة والجمعة والعيدين ، والإنفاق الواجب والمستحب على الفقراء ، ومساعدة الآخرين في قضاء حوائجهم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على نطاق الجماعة .

والإسلام يشجّع أيضاً اشتغال الفرد ـ ذاتياً ـ مع مولاه وخالقه سبحانه وتعالى . بمعنى أنّ الفرد الذي يعيش حالة القرب من الله عز وجل بالدعاء والابتهال والصلاة ، إنما يعيش سلوكاً أقرب إلى السلوك الجماعي مما هو إلى السلوك الفردي . ولذلك ، فإن الجانب الروحي يعتبر من أهمّ عوامل تهذيب شخصية المكلّف لئلا يعيش حالة الانفراد الخطيرة ، التي شخّصها الدعاء المأثور عبر سؤال المؤمن خالقه العظيم : « **ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً** » . وفي موضع آخر : « **ياربّ أسألك بحقّك وقدسك وأعظم صفاتك وأسمائك أن تجعل اوقاتي من الليل والنهار بذكرك معمورة وبخدمتك موصولة**»[٩].

وتلك المفاهيم الرائعة ذات قيمة أخلاقية عليا على المستوى النظري العام .

ولكننا نودّ هنا أن نتعامل مع السلوك الجمعي للمخاطبين الذين يأمل المبلّغ أو المرشد هدايتهم أو تثبيت عُرَى الإيمان في قلوبهم ومشاعرهم . ومن أجل ذلك لا بدّ أن نحدّد الأهداف العملية للمبلّغ أو المرشد في تنمية عمله التبليغي وتكامله، عبر النقاط التالية :

---

(٩) من دعاء الإمام أمير المؤمنين عليه السلام علّمه كُميل بن زياد ، «مفاتيح الجنان» ص ١٧٣ .

أوّلاً: الاهتمام بتنمية النية الخالصة والقصد السليم في تأدية العمل ، عند المخاطَب. فالأفراد الذين ينتمون إلى الجماعة يمارسون في الواقع سلوكاً جمعياً في تأدية العبادات أو الاستماع إلى الإرشادات والبيانات الدينية ، إلّا أنهم في الوقت ذاته يرجعون إلى أنفسهم ـ كلٌ على انفراد ـ في النّيات والمقاصد . فقد يأتي الفرد لاستماع محاضرة دينية أو خطبة تعبّدية ، ونيّته التسليم للمنطق الحقّ والدليل القوي . وقد يأتي فرد آخر بنفس الهيئة ولكن بمقاصد أخرى ونيات مختلفة كالجدال أو الرياء أو المنفعة الشخصية . فيكون اهتمام المبلّغ بتنقية نيات الأفراد المخاطبين وانفتاح قلوبهم نحو سماع الحقيقة ، من أهمّ أعماله التبليغية . فإننا لا نستطيع أن نربط الحافز النفسي نحو الحضور بالسلوك الديني ، ونهمل في الوقت ذاته دور النية في الاندفاع نحو تأدية العمل الشرعي الأوّلي . فإذا خلصت النيّة ونقى المقصد ، انفتح القلب لاستماع الحقيقة والإنصات للدليل . أما إذا لم نتأكد من نقاء النية وسلامتها ، فإننا لا نستطيع الاستمرار في العمل الإرشادي الموجَّه تجاه ذلك الإنسان .

ثانياً: لابّد من تنمية الدافع الامتثالي للأمر المولوي عند المخاطب . فمجرد الاندفاع نحو أداء الأعمال العادية كالحضور والاستماع والخدمة ، باعتبار أنها قضايا اجتماعية لا يؤدّي دوراً في القضايا التبليغية . بل لابدّ من تنشيط الجانب المعنوي عند المخاطب ، وتنمية دافع الامتثال للأوامر الإلّهية التي تتحدث بلغة الفطرة الإنسانية وتدخل في أعماقها .

وهذا الأمر مرتبط بالنيّة في الأصل . فلو لا وجود النيّة الخالصة للعمل قربة إلى الله تعالى ، فلن يتحقق الدافع الذاتي السليم للإنصات أو قبول الحقّ أو التغيير الذاتي أو أداء العمل الذي يترتّب على قبول الحقّ .

ودور المبلّغ هنا تشكيل «انطباع» واقعي في ذهن المخاطب عن الحقيقة التي يتحدث عنها . فإذا كان يتحدث عن الشفاعة ، فلابّد له من التأكيد على مبررات إسقاط العقوبة عن المؤمن المذنب ؛ وإذا كان يتحدث عن الحرية السياسية ، فلابّد له من خلق انطباع عن حجم الإكراه الذي كان يتعرض له أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام من قِبَل الحاكم الظالم ؛ وإذا كان يتحدث عن الاجتهاد ، فلابّد له من خلق انطباع عن اهتمام الشريعة الخالدة بتغيّرات الزمان والمكان .

ولاشك أن فهم مبررات الإيمان بتلك العقائد ، يقوّي في ذات الوقت الدافع الامتثالي

عند المكلّف ، فينصهر عندها مع توجّهات المبلّغ أو المرشد الديني .

ثالثاً: إن الاهتمام بالفرد المخاطب من قبل المبلّغ ينبغي أن لا يؤدّي إلى إهمال النفس الاجتماعية التي يملكها المخاطب . ونعني بفكرة النفس الاجتماعية أن شخصية الإنسان تتأثّر إلى حدّ بعيد بالسلوك الاجتماعي لبقية الأفراد . فإذا رأى الإنسان مجموعة من الأفراد يساعدون الآخرين ، فإنه قد يتأثّر بسلوكهم وينخرط في صفوفهم ويقوم بنفس العمل الذي كانوا يقومون به . فالإنسان لديه نفسٌ اجتماعية لمساعدة الآخرين . ونستفيد من المشهور من حديث رسول الله ﷺ دور النفس الاجتماعية في عمل الخير . فقد دخل المسجد فقير يسأل الناس، فحثّهم ﷺ على مساعدته بالقول : «**من سنّ سنّة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أُجورهم شيء. ومن سنّ سنّة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده ، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء .**»(١٠) .

والسنّة الحسنة في لسان الدليل غير مقيّدة بالإنفاق ، بل هو مطلق الخير . وكذلك الحال في السنّة السيئة ، التي تعبّر عن مطلق الشر . وبتعبير آخر : إن تحمّل المسؤولية الأخلاقية في المساعدة الاجتماعية من قِبَل أحد الأفراد سوف يحرّك البقية نحو تحمّل مسؤولياتهم الاجتماعية أيضاً في مساعدة الاخرين .

وهذا المعنى له جمالية فائقة ، خصوصاً إذا استطعنا بناء نفسٍ اجتماعية عند كل إنسان . فإذا كانت النفس الاجتماعية تدعو إلى العلم والبحث عن الحقيقة ، فقد ربحنا في إرشاد الناس نحو طلب العلم بصورة جماعية . وإذا كانت النفس الاجتماعية تدعو إلى مساعدة الآخرين والتآزر والتعاضد من أجل الخير العام ومنع الفتنة ، ربحنا أيضاً في دعوتنا لتثبيت أسس التعاون والسلام بين الناس . وإذا كانت النفس الاجتماعية تُظهر الولاء لأهل البيت عليهم السلام بالخصوص والإسلام بالعموم ، فقد فُزنا ببناء الأمّة على أسس الحقّ والعدالة .

ونستطيع القول باطمئنان بأن النفس الاجتماعية الموالية لأهل البيت عليهم السلام تُعتبر من أكثر الأنفس البشرية كمالاً في العطاء والمحبّة والتعاضد خلال أيام المناسبات كَوَفيات المعصومين عليهم السلام أو استشهادهم بدءاً برسول الله ﷺ وانتهاءً بأئمة الهُدى عليهم السلام .

---

(١٠) مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري ، حديث ٥٣٣ .

فالبذل في البكاء ، والامتثال للأعمال التعّبدية ، والبلاغة في التعبير الخطابي ، والإطعام كلها تعبّر عن تكامل تلك النفس الاجتماعية المتأثّرة بمصائب أهل بيت النبوة عليهم السلام .

رابعاً: ومن واجبات المرشد الروحي تأسيس الانسجام النفسي بين أفراد الجماعة. فالحقائق الدينية لا يُمكن بناؤها في أذهان الناس إلّا بمساعدة الآخرين . ولا يتمّ ذلك البناء الذهني للحقائق الدينية إلّا عن طريق الانسجام النفسي بين الجماعة . فنحن لا نستطيع فهم عقيدتنا في الخلق والتكوين والحياة الاجتماعية إلّا عن طريق رسائل يحملها المبلّغون والدعاة إلى الله والخطباء والعلماء والفقهاء إلينا . وليس للفرد طاقة نفسية فردية مجردة قادرة على استيعاب كل الحقائق الدينية دفعة واحدة . فالأحكام الشرعية مثلاً لا بدّ أن يستنبطها الفقيه من أجل إيصالها إلى المكلّفين ؛ والعقائد الدينية لا بدّ أن يجتهد المكلّف في تحصيلها من الطرق الفكرية المعهودة ؛ والأخلاق لابدّ أن يمارسها الفرد عن طريق العلم بقضايا الخير والشر . وتلك الوسائل مجتمعةً تساهم في بناء الفكر الديني في ذهن الإنسان . ولكن لا يمكن للفكر الديني أن يستقرّ في ذهن المكلّف ما لم يتفاعل مع أفراد الجماعة من خلال التلقّي والاستماع والمحادثة والمخاطبة والنقاش . ولا تظهر آثار ذلك التفاعل إلّا عن طريق وجود انسجام نفسي واجتماعي بين الناس .

ولا شك أن بثّ العلم الديني ، واستخدام الأساليب الأخلاقية في التعامل مع الآخرين يؤسسان أركان الانسجام الاجتماعي النفسي بين ثنايا الجماعة . فالدين يشجع الأفراد على التعاون والتكاتف والمؤاخاة بما يحقق الانسجام الاجتماعي داخل تلك الجماعة المتديّنة .

إنّ عمق الانسجام الاجتماعي الذي ينبغي أن يستشعره الفرد خلال عمل المرشد أو المبلّغ ، يمكن أن يُقاس بمقدار شعور ذلك الفرد بعدم انسلاخه عن بقية الأفراد الذين يتعامل معهم ؛ لأن الانسلاخ أو الاغتراب الاجتماعي يعني محاولة داخلية من قبل المغترب لرفض ما يجري داخل المسجد أو الحسينية أو مكان التجمع . **وبتعبير ثالث:** إنّ الفرد المنعزل اجتماعياً عن الحضور أو التفاعل يعلم في داخله أن المجتمع لا يكافئه مكافأة روحية أو فكرية تساعده على الاندماج روحياً ومذهبياً مع الآخرين ، وعلى الانضمام للسفينة الدينية أو الاجتماعية الماخرة في عباب الزمن . ولذلك فإن المنعزل اجتماعياً يغلق كل الأبواب الذاتية للتأثر والاقتناع والتغير .

خامساً: ومن خصائص المرشد الروحي أو المبلّغ هو القدرة على الإقناع . وفكرة الإقناع تعني القدرة على التأثير الحتمي المحقق للمخاطَب . ويتمحور الإقناع حول الأسئلة الثلاثة التالية : من الذي يُخاطب مَنْ ؟ وماذا يقول ؟ وما هو التأثير ؟ .

ويطرح الخبراء الاجتماعيون دائماً بعض الأسئلة المهّمة في حقل الإقناع ، وهي : ما هي الظروف الموضوعية التي تسبب تغيير اتجاهات الأفراد ومواقفهم واعتقاداتهم وسلوكهم ؟ وكيف نؤمن بأن ذلك التغيير كان ـ واقعاً ـ تغييراً حقيقياً وليس تغييراً سطحياً ظاهرياً يفتقد المعنى والجوهر ؟

لاشك أن المبلّغ أو المرشد الروحي ينبغي أن يتسلّح بالقدرة على تغيير مواقف الأفراد وآرائهم ، وهذا المقدار يعبّر عن جوهر الإقناع الحقيقي . فنحن نتعرض يومياً إلى محاولات اجتماعية عديدة للتأثير علينا في التفكير والشعور والسلوك . وتلك المحاولات تهدف إلى إقناعنا بقبول أو رفض سلوك معيّن وتفكير محدّد . ومن الطبيعي فإنّ الإقناع لا يتحقّق ما لم يتمّ تغيير مواقف الأفراد المراد إقناعهم في بعض مباني العقيدة ، والقضايا العاطفية الداخلة فيها ، ونيّة هؤلاء المخاطبين وقدرتهم على الاستجابة للمحفّزات الخارجية .

وعندما نصيغ مواقفنا تجاه الأشياء والأشخاص والظواهر الخارجية التي من حولنا ، فإننا نحتاج إلى معلومات يقدّمها لنا الآخرون . ولذلك فإن من أهم وسائل الإقناع لتثبيت مواقفنا أو تغييرها هو كمية المعلومات الواردة في أذهاننا من المصادر الفكرية الخارجية ، ومن الاعتبار بسلوك قادتنا ونزاهتهم ، ومن نظامَي الثواب والعقاب المدرجين على لوح الدين الحنيف . وما نريده من إقناع المخاطبين هو تصحيح المعلومات الخاطئة التي حملوها في فترات حياتهم ، وتطبيق أحكام الشريعة على حياتهم الاجتماعية والشخصية .

وبكلمة ، فإنّ على المبلّغ ـ ومن أجل أن يحقق أهدافه في الإقناع ـ أن يجمع بين الخبرة، والثقة الممنوحة له ، والمنزلة العلمية والاجتماعية ، والجاذبية الخارجية . وأن تكون الرسالة التي يحملها جامعة لكل معاني الجذب العقلائي والعاطفي ، والأسلوب الفصيح ، والموضوعية في طرح الإيجابيات والسلبيات ، وأن يكون المخاطبون على درجة من الاستعداد لتقبّل المعلومات والإيضاحات الواردة من أجل الاقتناع .

ولاشك أننا نضع القرآن المجيد منارَ هداية لنا في صياغة فلسفتنا حول التبليغ

والهداية ، ونضع الأخبار الواردة عن أهل بيت النبوة عليهم السلام منار هداية لبرنامجنا العملي الذي نطمح أن نحقّق من خلاله كل ما نصبو إليه . يقول سبحانه وتعالى حول خصائص التبليغ :

﴿ **الذين يبلّغون رسالات اللهِ ويخشَونه ولا يخشَون أحداً إلّاالله وكفى باللهِ حسيباً** ﴾(١١).

﴿ **يا أيّها النبيّ إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً وداعياً إلى اللهِ بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾(١٢) .

﴿ **وما علَى الرسولِ إلاّ البلاغُ المبين** ﴾(١٣).

﴿ **فأعرِض عنهم وعِظْهم وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً** ﴾(١٤).

ومن المشهور عن آثار النبوة والولاية ، نعرض هذين الخبرين :

الأول : « عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ **يا أيّها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ومبشّراً ونذيراً...** ﴾(١٥)، وكان صلى الله عليه وآله قد أمر علياً عليه السلام ومعاذاً أن يسيرا إلى اليمن فقال صلى الله عليه وآله : **انطلقا فبشّرا ولا تنفّرا ، ويسّرا ولا تعسّرا ، فإنه قد أُنزِل عليَّ ﴿ يا أيّها النبيّ ... ﴾** »(١٦) .

وشهرة الحديث جابرة للسند .

والثاني : عن الإمام الصادق عليه السلام : «**ليست البلاغة بحدّة اللسان ، ولا بكثرة الهذيان، ولكنها بإصابة المعنى وقصد الحجّة**»(١٧) .

إن تعامل المبلّغ أو المرشد الروحيّ مع السلوك الجمعي يُفتَرض أن يكون تعاملاً علمياً مدروساً يستلهم من الشريعة وأحكامها مبانيه الدينية ، ومن الارتكاز العقلائي مبانيه الفكرية والفلسفيّة . والحمد لله رب العالمين .

---

(١١) سورة الأحزاب : آية ٣٩.

(١٢) سورة الأحزاب : آية ٤٥.

(١٣) سورة النور : آية ٥٤.

(١٤) سورة النساء : آية ٦٣.

(١٥) سورة الأحزاب : آية ٤٥.

(١٦) «الدر المنثور» ج ٦ ص٢٠٦.

(١٧) «تُحف العقول» ، ص ٢٣٠؛ «بحار الانوار» ، ج ٧٨ ، ص ٢٩٢.